المقامة الهرمية

بين الهرم الاكبر و ناطح السحاب

للدكتور محمد عوض محمد

أصبح عيسى بن هشام شيخاً فانياً خرفا ، لم يبق منه الدهر سوى جلد ذابل ، على عظم ناتىء . غير ان مر السنين لم يزده إلا ولعا بسرد القصص ورواية الاخبار:

لكن حديثه أصبح كحديث كل شيخ يَفَن كبير ، قد اشتمل على شيء كثير من الخرافات والخيال . مما يجهد العقل ، ويعيا به اللب ، ويكاد حبل الفهم أن ينبتّ دون ادراكه .

أنصتُ اليه اليوم إذ يتحدث الى جُلاّسه عن الهرم الاكبر وناطح السحاب فيقول :

كان الهرم الاكبر راقداً ، غارقا فى رقاده ، نائما يغط فى نومه . وقد وسد رأسه ترابا لينا ورملا ناعما . وقد رُطِّىء له الفراش ، ومُهِّد له الثرى . فمضجعه سهل وثير ويغشاه لحاف غليظ تربٍ ، قد أكل عليه الزمان وشرب . لكنه كان يجد تحت هذا الغطاء الكثيف الراحة والدعة ، وهما أجل ما يتمناه .

ولهذا بقى راقدا غارقا فى رقاده ، نائما يغط فى نومه

عصفت به العواصف ، وأهابت به الاحداث ، وثارت من حوله الاعاصير ، وأهاجت الرياح رمال الصحراء حتى امتلأت بها طباق الهواء . واحتجبت النجوم عن العيون ، ولمع البرق وقصف الرعد ، وملئت السماء حرَسا شديداً وشُهُبا ... ثم زلزلت الارض زلزالا عنيفا مخيفا . فمالت الى اليمين ، ثم مالت الى اليسار ! وأخذت ترتجف وترتعد ، وتعلو وتهبط .

فهل حرك الهرم الجاثم ؟ هل فتح جفنا أو حرك طرفا ؟ هل أيقظته هذه القوارع الملمة والكوارث المحدقة من كل جانب ؟

انه بقى راقداً ، غارقا فى رقاده ، نائما يغط فى نومه

***

وفى يوم من أيام البلاء أتى اليه رجل فرنسى قصير القامة ، دميم الصورة . مُقَتَّر الوجه . قد ملأ الغرور قلبه ، وأعمى الوهم عينيه . . جاء هذا الفرنسى فنصب مدافعه أمام الهرم وصوبها الى رأسه ، يريد أن يوقظه من رقاده الطويل . فجعل يلقى بقذائفه : قنبلةً خلف قنبلة ، وقذيفة إثر قذيفة .

فهل تحرك الراقد أو التفت ؟

إنه - والله ! - لم يزد على أن رفع الرأس قليلا ، وبصق فى وجه ذلك المغرور . ثم عاد الى سباته العميق .

وظل راقداً ، غارقا فى رقاده ، نائما يغط فى نومه

***

ولهذا الغطيط الدائم ضوضاء هادئة حينا ، عنيفة أحيانا وقد ألفتها الأسماع فهى قلما تزعج أحداً أو تقلق كائنا . غير أن أبا الهول قد أصبح ذا مِزاج عصبيٍّ حساس . وقد استيقظ مرة فخيل اليه أنه لم يعد يطيق تلك الضوضاء . فالتفت مرة الى الهرم فى ليلة حالكة الظلام ، وخاطبه بصوت أجش ، فيه حدة وفيه عنف وشدة . وقال : أما كفاك رقاداً أيها الشيخ الهرم ، الذى طال نومه وأظلم يومه ، وخمد فهمه ، وطاش سهمه؟ ألم يأن لك أن تفيق ، وتكف عن الغطيط ؟ لقد فضحتنى فى الملأ الادنى وفى الملأ الاعلى بنخيرك هذا الذى ليس له غاية ، ورقادك الذى ليس منه إفاقة . حتى أصبحت مضرب الامثال فى الكسل والجمود وغدوتَ لى سُبَّةً وعارا . . . فوا الذى نفس خوفو بيده ، لولا بقية حلم ووقار لَنَكَزْتُك نكزاً ، أو سفعتك سفعا ولأطرت النوم عن عينيك وأنهضتك من هذا الرقاد الشائن . . .

قال عيسى بن هشام : هكذا أهاب أبو الهول بالهرم ، هكذا صاح المسكين ، وأمعن فى الصياح ، حتى انتفخت أوداجه ، وجاشت مناخره ، واحمرت عيناه وجف ريقه . . فلا والله ماتحرك الهرم ولا تحول . وما زاد على أن تثاءب ، ثم عاد الى سباته العميق .

وهكذا ظل راقداً ، غارقا فى رقاده ، نائما يغط فى نومه

***

حتى اذا كان الشتاء الماضى شهد العـــالم مشهداً غريبا ، وحادثا عجيبا : ذلك أن الهرم تحرك .. أجل وأبيكم - بل وأنا أيضا - لقد تحرك الهرم ، ومدَّ يده إلى عينيه فدلكهما دلكا عنيفا ، ومسحهما مسحا شديداً ثم رفع رأسه قليلا .. وأخذ يحرك شفتيه بالكلام . . فالى مَن كان يتحدث ؟ . .

ذلك هو السر الخطير ، والخطب الكبير ! إنه كان يتحدث الى بعض نواطح السحاب . . .

ولا تعجبوا أنْ وُفِّق هذا الناطح إلى ايقاظ الهرم ، حين أعيت فيه سائر الحيل . ذلك أن النظير أبداً يجذب النظير ، والحجر العظيم يلين للحجر العظيم ، ولا يفل الحديد الا الحديد ، وسد أبنية الغرب جاء قاصداً سيد ابنية الشرق ، لا زائراً أو حاجا ، بل سائحا ومطلعا . فأبى السخاء الشرقى والكرم الشرقى الا أن يتحرك له الهرم الاكبر بعض الشيء ، ويكرم وفادته بعض الشيء .

ولو تبين الهرم حقيقة أمر هذا الزائر وما امتلأ به قلبه من غرور ؛ لأشاح عنه بوجهه ، وأعرض عنه كل الاعراض . وانعمركم ولعمرى ! متى جاء من الغرب شيء يسر القلب ؟

***

سعى هذا الناطح الى الهرم سعيا حثيثا . فلم يزل يسبح فوق البحار ، ويجتاز القفار حتى أسلمه طول المسير الى رحاب الهرم الكبير . وربما ســـأتونى لماذا جشم الناطح نفسه كل هذا العناء ، وسط هذه الصحارى المحرقة السُمنصبة . وهو ربيب النعمة ، حليف النعومة ، ولقد تحسبون أنه ماجاء الا ليلتمس الحكمة من منبع الحكمة ، أو يطلب النور من حيث يطلع النور . او يبغى ايقاظ الهرم الراقد ، إذ عز عليه ان يطول رقاده .. ولكن الحق انه ماجاء لشيء من هذا كله . بل ساقه الى الهرم الاكبر ذلك الفضول ، ذلك الشغف بالاطلاع والاستطلاع ، والذى هو من غرائز العجماوات .. ثم لكى يستطيع ان يقول للنواطح الأخر إنه طاف بالهرم الاكبر وحظى بالمثول بين يديه ، بل قد يزعم أنه غالبه فغلبه ، وسابقه فسبقه

***

لم يكد يستقر المقام بناطح السحاب حتى انفتح منه الطابق الاعلى ، وأخذ يخاطب الهرم وفى صوته تلك الغُنَّة التى امتازبها أهل امريكا ، كأنما يسدون أنوفهم اذ يتكلمون . وقال له : عم صباحا ياعزيزى أبا الأهرام ، ان الهواء ها هنا جاف حار ، وقد طال سيرى فى البيد ، وبلغ منى الظمأ ، ولا أجد فى هوائكم سحابا يحلل هامتى ، ويبرد أوامى .

قال الهرم : عم صباحا ناطح السحُب ! هل لك فى الجلوس لتستريح قليلا من قطعك البحار وسيرك فى القفار ؟

قال : هيهات لمثلى الجلوس ! انى لاأقضى حياتى جاثما فوق أديم الثرى ، بل ناهضا قائما ، أحل هذه الطباق السبعين بين جدرانى .

قال الهرم : أجل وفى طيها هذه الكائنات الغريبة من كل مادب ودب !

قال : إن فى باطنى ، وبين جوانحى احياء ملؤها الحركة والنشاط ، أما أنت فلم تشتمل إلا على أجساد هامدة .

قال الهرم : تأدب ياناطح ! ان جسد خوفو الذى اضم بين جوانحى لأعز على الدهر من كل هذه الاحياء التى انطوت عليها طباقك السبعون .

قال : ان بلادك تحيا حياة جمود .

قال الهرم : ليست حياة الجمود بِدَعٌ من جمود الحياة

قال الناطح : أرجوك ألا تكلمنى ، بلغة الكهان القدماء واذكر أننا فى عصر البخار والكهرباء ، وفى القرن العشرين بعد الميلاد . لا قبل الميلاد منذ اربعة آلاف من السنين ، كان فرعونكم يسأل كاهنه الامر العويص ، فلا يحير الكاهن جوابا . فيُلجئه العجز إلى هذه العبارات المبهمة والاسجاع الغامضة . اما أنت فما أحراك ان تخاطبنى بلغة العصر ، وان تحدثنى فى صراحة ووضوح .

قل لى : انك لست إلا قبرا . ومع ذلك فانت رمز لهذه

الأمة القديمة . فكيف ترضى أمة حية ان يكون رمزها الذى يدل عليها قبراً من القبور .

قال الهرم : أنا رمز الخلود، رمز البقاء : رمز السرمدية التى تنتظم الوجود . ما هذه الآلاف السنين التى تذكرها غير حباب يطفو على موج الأثير الازلى . وما أنت والتواطح أمثالك، وما بخارك وكهرباؤك سوى ذرات فى هباء تذروها رياح الأبد . وما كيانكم وأقداركم وحظوظكم سوى اهتزازات فى اطراف جناح الدهر الخفاق . .

لقد شغلتكم الحياة عن التفكير فى الحياة . وأعماكم النور عن رؤية ماوراء النور ، وألهاكم الوجدُ عن حكمة الوجود . . ولعمرك ماذا تستطيع فى الدهر ، وماذا تنال من الأزل شرارة لا تكاد تذكو حتى تخبو ، ولا تكاد تبدو حتى تختفى ؟

فأطرق الناطح مليا ثم قال : ان الحياة أعز لدى من سر الحياة ، والوجود أحب الى من حكمة الوجود . فدعنى من أزليتك وأبديتك ! ان ساعة واحدة من حياتنا الأمريكية الممتلئة حركة وجداو نشاطا، أشهى إلىَّ من آلاف السنين أقضيها مثلك رابضا فوق التراب فى همود وخمود ، وسبات ورقاد . انى ضَحَّيتُ بالدهر من أجل الساعة ، وأعرضت عن الأزل من أجل اللحظة .

* * *

قال عيسى بن هشام : ولم يكن الهرم يوما ممن يُطيلون الجدل ، فحينما أبصر فى محدثه كل هذا التمادى والغرور أعرض عنه لحظة . ثم حدجه بنظرات حداد . فاذا المغرور يرتعد وينتفض ، ولم يكن الا مقدار مايتقط الشهاب ، أو يلمع البرق ، فاذا الناطح تتلك أركانه ، ويتداعى بنيانه ، وتتساقط طبقاته السبعون بعضها فوق بعض ، فأضحى هشيما منثورا . وأثرا من بعد عين .

أما الهرم الاكبر فلم يلبث أن عاوده السكون وغشيه الهدو . وكأنى سمعته حين أغمض عينيه ينشد شعرا غريبا ، بل أكاد أجزم أنى سمعته يتمتم ، فى صوت غامض مبهم ، بهذه الابيات الغامضة المبهمة :

العيش مستعذب عذاب ... والعمر تلهو به سراب .
والناس تبنى . وما بناءُ ... ان كان فى أسه الخراب ؟
فى إثر فوج يروح فوج ... فهل لذى روحة إياب ؟
مهدٌ يضم الورى ولحد ... فهل هما البدء والمآب ؟
الناس تجرى على سفين ... فى بحر وهمٍ له حباب
فلا سرور ولا صفاء ... ولا انتحاب ولا اكتئاب
ولا شقاء ولا نعيم ... ولا ابتعاد ولا اقتراب
للمرء من دهره سؤالٌ ... ما بالُه راعه الجواب ؟

ثم عاوده سباته العميق . وظل راقدا غافا فى رقاده ، نائما يغط فى نومه .

***

لم يكد عيسى بن هشام أن يبلغ هذا الموضع من حديثه ، حتى هاج سامعوه وماجوا . وأخذوا يتصايحون ويتصارخون ، وقال قائل منهم : إشهد يا ابن هشام لقد أدركك الخرف ولم تعد تحسن الحديث . فما أحراك أن تمتنع عن التحدث الى الناس ! أو تكف عن الادلاء بمثل هذه الترهات . أو قل إنك رأيت هذا فى المنام ، وإنه أضغاث احلام .

ثم انصرفوا . ولبث عيسى بن هشام فى مكانه ، حزينا كئيبا ، يندب جده العاثر ، ويأسف على مجده القديم ، حين كان يتحدث ، فترهف لحديثه الآذان ، وتميل نحوه الأعناق . ولا يكاد الناس يملكون أنفسهم من الاعجاب .

مطبعة سكر

تنشر الصحف تبعث المؤلفات

مصونة بأحدث ماكينات التطيير وهاكة

الدفاتر وتجليد الكتب تقدموا اليها

بأوراقكم وأفكاركم ترد لها لكم كتبا

مجلات ودفاتر تبارك الله أحسن الخالقين